

الحرب والسلام لليوتولستوى

بمستم
الأستاذ على أرهم

الأوروبيون من الأدب اليونانى والأدب الرومانى موقف المقلدين الخاضعين على فرط اعجابهم بنماذج الأدباء العظمين ، وإنما استوحوا الآيات الفنية فى الأدب اليونانى والرومانى لتكون لهم باعثاً على الابتكار والتجديد فى الأدب والفن ، وشيء من هذا القبيل حدث فى روسيا ، فقد وجد الروسىون فى أدب غرب أوروبا - سواء الأدب الإنجليزى أو الأدب الفرنسى أو الأدب الألمانى - حافزاً على الابتكار وشق الطريق فى عالم التجديد ، وذلك لأن الروسين كان لهم من فرديتهم المتميزة وملابس حياتهم الخاصة وأحوالهم السياسية والاجتماعية ما يذأى بهم عن مجرد المحاكاة ، ويدفعهم دفعاً إلى التعبير عن أنفسهم وتوصيف أحوال بيئتهم ، واستطاع بذلك الأدب الروسى أن يرد الجميل للأدب الغربى مضاعفاً ، وأثر الكتاب الروسىون فى الآداب الغربية تأثيراً واضحاً غير منكور .

وقد اشتهرت الرواية السيكولوجية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وفى هذا اللون من ألوان الأدب الروائى بوجه خاص أظهر الروائيون الروسىون براعة منقطعة النظير ، وكشفوا الكثير من مغيبات الوعى الإنسانى ومستكنات الضمير ، وساعدهم على

من الحوادث الهامة فى القرن التاسع عشر التى لفتت الأنظار ظهور الأدب الروسى وبلوغه مكانة سامية ملحوظة بين الآداب العالمية ، وبروز الكتاب الروسين فى طليعة الكتاب العالمين ذوى الشهرة الواسعة ، والمشهود لهم بالتفوق والامتياز .

وفى النصف الأول من ذلك القرن لم يكن الأدب الروسى معروفاً فى غرب أوروبا ، وقد وصف الروسين حينذاك أديب واسع الاطلاع مثل توماس كارلايل بقوله عنهم « الروسىون العظماء الصامتون الذين لم يعبروا بعد عن أنفسهم فى آثار أدبية » ولكن لم يمض على هذه القالة أكثر من ثلاثين سنة حتى صار الأدب الروسى معروف المكانة بعيد الأثر فى حياة أوروبا الثقافية .

والواقع أن وثبة الأدب الروسى تشبه من بعض الوجوه النهضة الأدبية التى حدثت فى غرب أوروبا فى عصر الإحياء ، ففى القرنين الخامس عشر الميلادى والسادس عشر تأثرت أوروبا بالأدب اليونانى والأدب الرومانى ، ولكنها فى الوقت نفسه كان لها أسلوبها الخاص فى الحياة وأفكارها واتجاهاتها التى تختلف عن أفكار الأمم القديمة واتجاهاتها ، ولذلك لم يقف

ذلك تلك الصراحة البريئة التي امتاز بها الروسيون وتحريمهم الصدق في وصف ما يخالج نفوسهم ، ويطوف بأفكارهم ، ويعمل بعض النقاد ذلك بخلو الحياة الروسية من كثير من التقاليد التي أوجدتها في أمم غرب أوروبا حضاراتهم المعقدة ، والكتاب الروسيون يتحدثون بصراحة تكاد تشبه صراحة الأطفال الناشئين ، ولكن هذه الصراحة مقترنة بذكاء لماح وقدرة فائقة على سبر أعماق النفوس ، ويبدو ذلك واضحاً في كبار ممثلي الأدب الروسي مثل تولستوى ودستوفسكى وتورجنيف وغيرهم ، وتولستوى ودستوفسكى بوجه خاص لا يكادان يخفيان شيئاً ، بل يذكران كل ما يحول بخواطرهما ويترأى لهما في صراحة تروع القارئ ولكنها تستميل القلب وتأسر اللب ، ولا خلاف في أن الصدق والصراحة والإخلاص هي الصفات الأساسية في الأدب العظيم ، وإن كان يتفاوت نصيب آداب الأمم منها تبعاً لأحوالها الاجتماعية ونظمها السياسية ومثلها العليا الأخلاقية ، وعند تولستوى أن تحرى الحق والتزام الصدق هما أساس الأخلاق وأصل الفضيلة ولا شيء يشرى نغمته ويؤذى شعوره مثل الكتمان ومحاولة الإخفاء ، وهما في رأيه دعامة الرذيلة وسندها .

ومن الصفات الباهرة المؤثرة التي اشتهر بها الأدب الروسي قوة العطف ، وربما كان للظروف السياسية التي عاش فيها الروسيون أمداً طويلاً أثر قوى في هذا العطف المتفجر الذي تحفل به طرائف الأدب الروسي ، وروسيا من الدول العظيمة التي عانت الكثير من سوء الحكم وفساده ، وشقيت من قسوة حكامها وعنفهم بها وقد ساعد الظلم والطغيان الذي تعرضت له روسيا على جعل الكتاب الروسيين ينفذون إلى أعماق الشقاء الإنساني ، ويعرفون مآسى البشرية التي تستدعى العطف وتستوجب الرحمة ، والأمم كالأفراد تريد التجارب المرة التي تمر بها علماً بمآسى النفس الإنسانية ، وتوسع دائرة عطفها وتجاربها .

والعظماء في تاريخ الأمم ، سواء تاريخها السياسي أو الأدبي ، لا يجيئون فرادى ، وقد كان تولستوى قمة عالية بين كتاب بعضهم يطاولونه ويقتربون من مستواه مثل دوستوفسكى وتورجنيف وبعضهم يجرون في حلبته وإن لم يبلغوا مكانته .

وقد ولد تولستوى في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٢٨ في قرية ياسنايا بوليانا القريبة من مدينة تولا على الطريق القديم الموصل إلى مدينة كييف ، وكان والداه الكونت نيقولا تولستوى والأميرة ماري فولكونسكى ، وكلاهما من أبناء الأسر الروسية المعروفة ، وقد لعبت أسرة تولستوى دوراً هاماً في تاريخ روسيا السياسي ، وكان لجلده بطرس - وهو أول من نال لقب كونت من أفراد الأسرة - مشاركة في مقتل الكسيس ابن بطرس الأكبر ، وقد عين رئيساً للشرطة السرية وحاز ثقة الإمبراطورة كاترين الأولى ، ولما اعتلى العرش بطرس الثاني ابن الكسيس القتل فقد الكونت تولستوى مكانته العالية ، ولما كان في تلك الفترة متقدماً في السن فقد آوى إلى دير سولفتسكى الواقع على البحر الأبيض في شمال روسيا ، وهناك وافته منيته ، وجردت الأسرة من لقبها حيناً من الزمن ولكن في أثناء حكم الإمبراطورة الزابث ابنة بطرس الأكبر أعيد إليها اللقب .

والدة تولستوى الأميرة ماري فولكونسكى كذلك من أسرة سامية المقام ، وكثيرون من أقاربها كانوا من قواد روسيا العظام .

والد تولستوى - نيقولا تولستوى - حضر الحملات الحربية والغزوات في سنة ١٨١٣ وسنة ١٨١٤ ووقع أسيراً في يد الفرنسيين ، وأطلق سراحه حينما دخلت جيوش الحلفاء باريس سنة ١٨١٥ ، وقد صور لنا تولستوى عدداً من أقاربه في رواية الحرب والسلام ، فنيقولا روستوف في تلك الرواية هو والده ، والأميرة ماري بولكونسكى هي والدته ، وكانت شخصيتها الحقيقية كما بدت في الرواية شخصية امرأة

جليلة القدر ، نبيلة المنزح ، مطبوعة على التدين ، ولم يكن عمر تولستوى قد تجاوز عاماً ونصف عام حينما توفيت والدته ، وقد استطاع أن يتصور شخصيتها ويقف على شريف سيرتها مما سمعه عنها من أقاربه الأذنين .

ومات والده وهو في التاسعة من عمره ، وقد تركه وأخوته الثلاثة وأخته في وصاية شقيقته ، ولكن التي تولت الإشراف على تربيته سيدة تمت إلى الأسرة بصلة القرابة البعيدة وهى السيدة تاتيانا يرجولسكى وكانوا يدعونها بالعمة ، وكانت فى شبابه قد أحببت الكونت نيقولا تولستوى وبادلها حباً بحب ، ولكنها ضحت بحبها له لتمهد له السبيل إلى الزواج بوارثة غنية وهى الأميرة مارى فولكنسكى ، وبعد الزواج ظلت على صلة وثيقة بأسرة الكونت ، واكتسبت مودة زوجته ، ولما ماتت زوجة الكونت أراد أن يتزوج تاتيانا ولكنها أبّت ذلك خشية أن تفسد تلك العلاقة الطيبة التي ربطتها بزوجته المتوفاة وأطفالها ، وكانت هذه السيدة مثالا للخلق الكريم والسجايا الحميدة ، وقد أسبغت عطفها على الأطفال وفيأتهم ظل رعايتها ، وقامت من ليو مقام الوالدة العطوف التي لم يعرفها والوالد البر الذي سرعان ما فقده ، وكانت مصدر سعادته فى طفولته ، وقد اعترف هو نفسه بأنها صاحبة الفضل الأكبر فى تكوينه الأخلاقى ، قال عنها « كان للعممة تاتيانا أعظم تأثير فى حياتى ، فهى التى علمتنى وأنا فى مدارج الطفولة الفرحة الأخلاقى بالحب ، وهى لم توح إلى الحب بالكلام وإنما أوحته إلى بكيانها جميعه ، وقد رأيت كيف كانت سعيدة بالحب وشعرت بذلك ، وعرفت فرحة الحب ، وكان هذا أول درس تعلمته ، وكان الدرس الثانى الذى تعلمته منها هو جمال الحياة الهادئة المطمئنة المتوحدة » .

وكان لكل واحد من الإخوة الأربعة شخصيته حموية ، وكان ليو شديد الحب لأفراد أسرته وكان

يختص أخاه نيقولا - الذى كان يكبره بست سنوات - بالنصيب الأوفر من حبه وعطفه ، وكان لأخيه نيقولا مواهب سامية ، وكان ليو نفسه يعتقد ويؤكد أن أخاه يفوقه فى المواهب والقدرة الفنية ، وكانت العممة تاتيانا شديدة التدين تحسن إلى الرهبان والراهبات وتبر الفقراء وأبناء السبيل ، وفى مثل هذا الجو الشعرى الدينى نشأ ليو تولستوى ، وغير عجيب من تولستوى الذى قضى طفولته فى مثل هذا الجو أن يعود إلى الدين بعد أن غربت شمس الشباب وتمرس بتجارب الحياة ، وبعد أن جرد الدين من الخرافات العالقة به والتقاليد الزائفة التى تحجب نوره وتخفى جوهره .

وقد التحق الأخوة بجامعة قازان ، واختار ليو كلية اللغات الشرقية ليعد نفسه للسلك الديبلوماسى ، ثم حاول دراسة القانون وغيرها من الدراسات ، ولكنه لم يثبت على دراسة واحدة ولم يوفق فى الدراسات التى حاولها وترك الجامعة ناقماً مترمماً ، وعاد أدراجه إلى ياسنايا بوليانا عاقد العزم على أن يهب حياته للمزارعين وقد وصف لنا تولستوى فى كتابه « أحد ملاك الأرض » تجارب بطل القصة نيكليدوف وهو يزور المزارعين الذين سألوه المساعدة ، وكيف كانوا يعانون البؤس والشقاء فى أكوأخهم الحقيرة ، وقد أدرك بطل القصة أن مرد سوء حالة الفلاحين يرجع إلى سوء المعاملة التى يلقونها من ملاك الأرض وصنائعهم ، فقد كان هؤلاء الملاك لا يتورعون عن خداعهم واستلاب حقوقهم ولكنه فى الوقت نفسه لم يغمض الطرف عن عيوب الفلاحين وأخطائهم .

على أنه لم يلبث أن هجر الريف وعاد إلى بتروغراد وعاش ملياً عيشة لهو وقصف منغمساً فى الشهوات والموبقات معرضاً إلى حد كبير عن الدراسة ، وقد وصف لنا حياته فى تلك الفترة فى كتابه المشهور « اعترافى » قائلاً « أردت مخفصاً أن أكون رجلاً صالحاً فاضلاً ، ولكنى كنت شاباً وكان لى أهواء ،

وقد وقفت وحيداً لا مسعد لي في طلب الفضيلة ، وكنت كلما حاولت أن أعبر عن نزوع قلبي إلى الحياة الفاضلة بحق أقابل بالازدراء وضحك الزرارية ، ولكن حينما كنت أستسلم لأحط الأهواء كنت أمتدح وأشجع . . ولا أستطيع أن أستعيد ذكريات تلك السنوات دون أن تخالجنى شعور مؤلم بالاستفطاع والتقزز ، وقد قتلت الرجال في الحرب ، وبارزت الكثيرين لأقضى عليهم وخسرت في المقامرة ، وأتلقت الأموال التي انتزعها من عرق الفلاحين ، وأنزلت بهم العقوبات القاسية ، ولهوت وعربدت مع النساء الفاجرات وخدعت الناس ولم أتورع عن الكذب والسرقة ، وكل ضروب الفحشاء ، والسكر والعنف والقتل ، ولم أقصر في اقتراف إثم من هذه الآثام ، ولم ينتقص ذلك كله من قدرى عند أضرابي ولم ينل من مكانتي .

والمحدث هنا تولستوى الناسك المتشدد الذي يصدر الأحكام الصارمة على حياة اللهو والانحراف في تلك الفترة من فترات حياته وتجاربه ، وقد علمته هذه التجربة احتقار حياة الطبقة الأرستقراطية القائمة على جنون الأثرة ، ولم يتعرض بعد ذلك للسقوط في مهاوى الرذيلة مرة أخرى ؟

وفي أثناء ذلك كان أخوه نيقولا يعمل في فرقة المدفعية بالقوقاز ، وفي سنة ١٨٥١ عاد إلى مقر الأسرة ورأى إقبال أخيه على اللهو والإسراف في طلب المتعة ، وخشى عاقبة ذلك ، فحضه على مصاحبته إلى القوقاز ، وقضى تولستوى ثلاث سنوات في القوقاز ، وأفاد من جمال مناظرها وطيب هوائها ، واستيقظ في نفسه الشعور الديني والقوة الخالقة فظهر كتابه عن الطفولة سنة ١٨٥٢ ، وحظي الكتاب باعجاب النقاد الروسيين جميعاً ، وقد وصف فيه تولستوى طفولته وصفاً سيكولوجياً بديعاً ، وأمدته حياته في القوقاز بمواد لكتابته الساحر عن القوقاز ، ويطالع القارئ من صفحات هذا الكتاب مناظر سلاسل الجبال الشاخنة التي تتوج

الثلوج قممها الشواء ومشاهد الحياة الحرة الطليقة ، ويكاد يستنشق هواء الغابات الفسيحة المترامية ، ومحدثنا تولستوى عن لسان بطل القصة بأن هذه المناظر الرائعة كانت تثير في نفسه لأول وهلة الشعور بالدهشة والاستغراب ، ولما ألفها صارت تثير في نفسه الشعور بالسرور والارتياح حتى صار كل ما يفكر فيه وكل ما يشعر به جليلاً رائعاً مثلها ، ويرجع جانب من ضيقه بالحضارة ونقده لها إلى تلك السنوات التي قضاه في هذه الحلوات الفيج والحياة الطبيعية البريئة من تعقيدات المدنية .

وغادر تولستوى في سنة ١٨٥٣ القوقاز إلى شبه جزيرة القرم ، ويسر له أقاربه الحصول على وظيفة في هيئة أركان حرب القائد الأعلى للجيش ، فوصل إلى سيباستبول في نوفمبر سنة ١٨٥٤ وتعرض هناك لأخطار محمقة ، فقد كان كثيراً ما يتطوع للقيام بمهمات في غاية الخطورة ، وقد عرف هناك فظائع الحرب ومآسيها الدامية وألف كتابه « قصص من سيباستبول » وقد لفت هذا الكتاب نظر القيصر نفسه وذاعت شهرته ووطد مكانة تولستوى الأدبية وقد علمته تجربة الحياة في سيباستبول احترام الناس العاديين وتقديرهم فقد شاهد بعينه مظاهر البطولة والإقدام والتضحية بالنفس التي أبدتها الجنود في ظروف قاسية وأحوال سيئة ، ولم يكن ذلك من أجل غاية مادية أو مطمع شخصي وإنما كان ذلك في سبيل مثل أعلى للوطنية ، وقد وصف تولستوى في هذا الكتاب سيكلوجية الحرب أربع وصف وأصدقه ، والأحوال النفسية المختلفة التي يمر بها الجنود المحاربون والصدقات النبيلة السريعة التي تنشأ بين الرجال المعرضين للموت في كل لحظة واستشعار الغبطة في القدرة على احتمال المتاعب التي تحتاج إلى أكثر مما في طوق البشر ، ويمكن أن نتبع في هذه القصة آثار موقف تولستوى من الحرب بوجه عام ، فالحرب عند تولستوى مدرسة الفضائل البطولية

ولكنه مع ذلك ممقها أشد المقت ، لأنها من ناحية أخرى مضيعة للنفوس النبيلة ، والغايات التي تثار الحروب من أجلها لا تستحق ما يبذل في سبيلها من تضحيات ، وتبدو هذه الغايات في رأى تولستوى تافهة فارغة إلى جانب الدماء المراقبة والجهود المبذولة والتضحيات الجمة التي تدفع ثمنها .

وبرم تولستوى بالجد الحربي وزهد فيه ، وعاد توأ بعد تسليم سيباستبول إلى بتروغراد ، وتلقاه نوابغ أدباء عصره بالترحيب ، وقدم إلى تورجنيف والشاعر فت الذي أصبح صديقه الحميم ، على أن تولستوى لم يكن يحفل كثيراً بمصاحبة الكتاب والمؤلفين ، وسرعان ما ابتعد عن جماعة أدباء بتروغراد .

وفي سنة ١٨٥٧ قام برحلة في أوروبا ، وزار باريس ، وشاهد هناك إعدام أحد المجرمين ، وقد جعله ذلك يكره عقوبة الإعدام طوال حياته ، وزار كذلك سويسره ، وفي لوسرن ساءه تنفج السائحين الإنجليز فكتب قصة قصيرة عنوانها « ألبرت » وهي تدور حول موسيقار متجول عامله الإنجليز بترفع غير مقبول مما أساء إلى شعور تولستوى الإنساني وجعله من ناحية أخرى يبالغ في إكرام الرجل وإظهار العطف عليه ، وهي تبين نزعة تولستوى في حب التغلغل إلى أعماق النظام الاجتماعي وهو يبحث عن علة أى مظهر من مظاهر الظلم .

وفي سنة ١٨٦٠ مات أخوه الحبيب نيقولا بين ذراعيه ، وكان أصيب بمرض السل ، وكان تولستوى يكره الموت ونخشاه فزاده مصرع أخيه كراهية في الموت وحيرة أمام لغزه ، وقد وصف لنا ظروف موت أخيه حينما تحدث عن موت نيقولا ليثن أحد الأشخاص البارزين في روايته الممتازة « أنا كارنينا » :

ودرس تولستوى مبادئ التربية في فرنسا وألمانيا وإنجلترا ، ولما أعلن تحرير الفلاحين في روسيا سنة ١٨٦١ حاول تولستوى أن ينهض بعب إنشاء مدارس

لتعليمهم في ضيعته ، وكانت آراؤه في التربية متأثرة بنظريات روسو ، وقد نظم مدارسه بطريقة مبتكرة تسمح للأطفال بالنمو العقلي الذي لا يلقي عقبات في طريقه ، وبالحرية التي تساعد على تكوين الشخصية المستقلة ، وكان لآرائه في التربية تأثير بعيد المدى في روسيا ، وكتب أقصوصات لأبناء الفلاحين تمتاز بالبساطة ودقة ملاحظة سلوك الحيوان والنبات والأطفال أنفسهم ، وبعضها عن مغامرات صيد الدببة والذئاب والأرانب ، ولم يقتصر عطف تولستوى على الحيوان فقد شمل الأشجار والنبات ، وبطبيعة الحال لم تعجب طريقة تولستوى في تنشئة أطفال الفلاحين رجال دولة القيصرية ولذلك أغلقت هذه المدارس وألغيت نظمها ، وحدثت خلافات كثيرة بين النبلاء والمزارعين من جراء توزيع الأرض ، وتطوع تولستوى بالقيام مقام الحكم بين الفريقين ، وقد جر عليه ذلك نقمة جيرانه من الطبقة الأرستقراطية لأنه في أغلب الأوقات كان ينصر المزارعين ويرد إليهم حقوقهم ، وقد جعلته كثرة ما رأى من تخادعة الطبقة الأرستقراطية للفلاحين والعدوان على حقوقهم نصير الفلاح الروسي المدافع عن حقوقه في ثبات وحماسة .

وفي سنة ١٨٦٢ تزوج تولستوى صوفيا بهرز وكان في الرابعة بعد الثلاثين من عمره ، ولم تكن سنها تتجاوز الثامنة عشرة ، وعاش عيشة عائلية سعيدة ، وكانت تلك الفترة أسعد أيام حياته ، واتسع المجال أمام عبقريته للإنتاج الفني العظيم ولو أنه فيما بعد لم يكن راضياً عن هذه الفترة ، وعد سعادته في خلالها ضرباً من ضروب الأنانية .

ونجح في إدارة شؤون ضيعته واكتسب مودة المزارعين ، وأثبتت زوجته أنها من أشد الأمهات تقديرًا لواجبات الأمومة ورعاية الأطفال ، وفي هذه الفترة من حياته أتم تولستوى تأليف الروايتين العظيمتين اللتين رفعتا اسمه إلى مستوى المؤلفين الخالدين ،

وأبعدتا شهرته في أنحاء العالم المتحضر ، ووطدتا مكانته الأدبية ، وهما رواية « الحرب والسلام » واستغرق تأليفها الفترة من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٩ ورواية « أنا كارنينا » وقد كتبها فيما بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٦ .

وكان تولستوى فناناً شديداً المحاسبة لنفسه ، فقبل الشروع في تأليف رواية « الحرب والسلام » قام بدراسات تاريخية وافية ، وقد فكر في تأليف رواية عن عهد بطرس الأكبر ولكنه وجد أنه كلما أمعن في دراسة ذلك العصر ازداد له كرهاً ، واقتنع بأن الإصلاحات التي جاء بها بطرس الأكبر لم يكن يقصد بها الخير للأمة الروسية ، وإنما كانت لمصلحته الشخصية وأنه لم يكن يرمى إلا إلى حياة لا أخلاقية طليقة من القيود .

ورواية أنا كارنينا بناها تولستوى على حادثة وقعت في الحياة الحقيقية ، وهي انتحار شابة في مقتبل العمر خانها التوفيق في الحب فقذفت بنفسها في مواجهة أحد قطارات السكة الحديدية .

وكانت زوجته تساعده في جهوده الأدبية ، وكانت وحدها هي التي تستطيع قراءة خطه وما يدخله على كتابته من تغيرات وتصويبات ، وكانت في بعض الأحيان تعيد كتابة الأصول برمتها .

ولما شارف تولستوى الخمسين من عمره طرأ عليه تغير كبير ، وقد كانت حياته حتى بلوغه هذه السن لامعة مشرقة ، وسلسلة متتابعة من النجاح والتوفيق ، وقد وصل إلى ذروة المكانة الأدبية ، ووفق في زواجه ، وكان رب أسرة سعيدة تعيش في رغد من العيش ، ولكن ذلك كله لم يحل دون حدوث الأزمة النفسية والانقلاب الروحي ، وقد علل الناقد الروسي مركزوفسكى هذه الحالة النفسية بأنها نتيجة لهبوط الحيوية الذي أصاب تولستوى حينما شارف الخمسين من عمره ، ولكن تتبع حياة تولستوى لا يجعل هذا

التعليل مقبولا ، فتولستوى كان منذ أوائل حياته وفي ريعان شبابه معنياً بمحاولة فهم معنى الحياة ، وسبر أعماق مشكلاتها الأخلاقية والدينية والاجتماعية ، وقد كان هو نفسه صادقاً ودقيقاً في وصف هذه الحالة التي استولت على نفسه حينما أشار إليها في كتابه الاعتراف بقوله « لما أتممت كتابتي « أنا كارنينا » بلغ بي اليأس أقصى حدوده ، وصرت أدمن التفكير ، وأطيل النظر في الحالة الرهيبة المحتواة التي ألت بنفسي ، وكانت الأسئلة تنهال على وتتناثر حولي ، وتطالبني بالإجابة عليها ، ومثلما تنجبه الخطوط كلها إلى ناحية واحدة كذلك كانت الأسئلة غير المحاب عليها تتراحم وتتدافع متجهة جميعها إلى نقطة سوداء ، وبقيت مسمرأ في تلك النقطة وقد استولى على الخوف ، واستقل مشاعري الإحساس بالضعف ، وكنت أشارك الخمسين من عمري لما سافقتني هذه الأسئلة إلى هذا الموقف الضنك غير المنتظر ، وانتهيت إلى هذه النتيجة ، وهي أنني — وأنا رجل سعيد موفور الصحة — لا أملك البقاء ، ولا أقوى على العيش ، وقد كنت من الناحية البدنية أستطيع أن أشتغل في حصاد الدريس كما يستطيع أي مزارع ، وكنت من الناحية العقلية أستطيع ممارسة الأعمال الفكرية أكثر اليوم دون أن يعتريني كلال أو مرض ، ولكنني ورغم ذلك كله انتهيت إلى هذه النتيجة وهي أنني لا أطيق البقاء ، ولم أر أمامي إلا شيئاً واحداً وهو الموت ، وكنت أرى كل شيء آخر ما خلاه باطلاً ومحالاً زائلاً » .

وخرج تولستوى من هذه الأزمة العنيفة وقد اقتنع الاقتناع كله بفكرة أن اليقين الحق يقوم على طاعة التعاليم الواردة بالإنجيل ولا سيما النصائح المذكورة بخطبة الجبل ، ورأى أن طاعة هذه التعاليم قد تحققت في حياة الفلاحين الروسين ، فاتخذ حياتهم إنموذجاً يصوغ حياته على مثاله ، فأهم عناصر الحياة هما العمل والحب ، وإن على الإنسان أن يتحرى البساطة في حياته

ويعمل ، وأن يعطى أكثر مما يأخذ ، وأن يسهم في عمل الخير دون أن يفكر فيما يعود عليه منه ، وأن يجد السرور في مساعدة الناس وأداء الخدمات لهم ، وفي هذه الحالة يجد السعادة ولا يخشى عادي الموت ، وهذا هو حل مشكلة الحياة الذي انتهى إليه تولستوى واطمأن له ووقف حياته على إذاعته في كتبه .

ودفعه ذلك إلى التزام البساطة في حياته العملية ، فأمسك عن أكل اللحوم ، وعاش على الأطعمة النباتية مع التخفف من الطعام جهد الطاقة ، وصار يلبس ملابس الفلاحين ويتولى بنفسه تنظيم حجراته وتنظيفها ، ويعمل في الحقول ، ويقطع الأخشاب في الغابات ، ويقضى جزءاً من وقته كل يوم في الأعمال اليدوية ، وأجدى على صحته الاعتدال والقصد في المأكل والمشرب ومباشرة العمل بغير انقطاع ، ووجد مع ذلك متسعاً من الوقت للتأليف .

وحاول تولستوى أن يكون منطقياً مع نزعة الصوفية ، فأراد التخلص من أملاكه ، وهنا وقع التصادم بينه وبين أسرته ، واتسعت هاوية الخلاف ، وقد كانت زوجته مثالا للزوجة التي تحسن تدبير الشؤون المنزلية ، وترعاه ما دام يعمل من أجل رفع شأن الأسرة وإعلاء مكانتها ، ولكنها لم تستطع فهم تلك الأزمة النفسية التي انتابته وأسفرت عن رغبته في التخلص من ثروته وكل ما يملك ، وكان أشد ما يشغل بالها وتخيفها تعريض أولادها للفقر والحاجة ، وقد خطرت لها فكرة الاستعانة عليه بالسلطات وإعلان أنه مختل العقل وغير أهل لإدارة شؤون أملاكه ، ووقفت أكثرية أولاده في صف والدتهم ، واضطر تولستوى إلى قبول الحل الوسط ، ففي سنة ١٨٨٨ تنازل عن أملاكه لأسرته ، وظل مثابراً على إخراج مؤلفات دينية النزعة ، منها كتاب « ديانتى » وكتاب « ملكوت الله في داخل نفسك » .

وأحزنه أحوال روسيا السياسية وهمته ، فقد قرر أعضاء اللجنة التنفيذية للثائرين الروسين القضاء على القيصر الإسكندر الثاني ، وقاموا بتنفيذ هذا القرار ، وكان لمصرع القيصر وقع عظيم في أنحاء روسيا هزها من أعماقها ، واستنكر تولستوى الجريمة ، ولكنه مع ذلك أشفق على الذين تولوا كبرها ، وبادر إلى إرسال رسالة علنية للقيصر الإسكندر الثالث يرجوه فيها باسم السيد المسيح أن يصفح عن القتلة ويشير عليه بأن الطريق الوحيد لنجاة روسيا هو اتباع وصايا يسوع ، وأن الطرق الأخرى مثل استعمال العنف والقسوة والارهاب والاضطهاد أو إدخال الإصلاحات التحريرية قد جربت ولم تحقق الغاية المرجوة ، ولم يتلق تولستوى بطبيعة الحال ردّاً على هذه الرسالة ، وأعدم القتلة .

وفي مؤلفات تولستوى التالية يكشف عن كراهته للعنف في أى صورة من العوالم سواء الصورة القانونية أو العوالم غير القانونية .

واشترك متطوعاً في عملية إحصاء سكان روسيا سنة ١٨٨٢ ومكنه هذا الاشتراك من معرفة مدى تغلغل الشقاء في روسيا ، وقد أوضح تولستوى ذلك في كتابه القيم الذي جعل عنوانه « ماذا نصنع إذن ؟ » وهو تصوير مؤثر للشقاء والفقر والرذيلة السائدة في المجتمع الروسي وبيان عجز وسائل البر والإحسان عن علاج هذه المساوئ الفاشية ومقاومة الشر وهو يسأل بعد ذلك ما هو العلاج الناجع لهذه الأحوال المعتبرة ؟ وهو يذكر في هذا الكتاب أن العامل الأمين الكادح المحد لا يجتنى ثمرة كده لأن نتاج عمله يبدد في توفير أسباب الترف والاستمتاع لساداته المياسير ، وتضيع جهود الجماعة سدى لأنها بدلا من أن تتجه إلى إعداد الضروريات تحول إلى تجهيز الكماليات التي لا تصلح إلا للقلة ، والطبقة الميسورة تفسدها البطالة وهي في دورها تنفث حولها سموم الفساد وتساعد على إيجاد جماعة الطفيليين الذين يعيشون عالة على غيرهم ، وتحليل تولستوى في

فقد كان الرجل من أوفى أصدقاء الإنسانية ، ومن أقدر الكتاب والمفكرين من الناحية الفنية :

رواية الحرب والسلام

رواية الحرب والسلام من الطرف الأدبية الفذة التي لا يعرف لها نظير في الآداب العالمية برمتها ، وهى فى رأى فريق من النقاد أعظم رواية أخرجت للناس ، وقد عدّها بعض النقاد ملحمة نثرية تقف إلى جانب الياذة هومر الشعرية ، وقد وازن النقاد البريطانى إدوارد جارنت بين الياذة هومر ورواية الحرب والسلام ورأى أن الإلياذة تفوقها فى الجمال والتركيز ، وأن رواية الحرب والسلام ترجح الإلياذة من ناحية السعة والشمول وتعتقد الاهتمامات الإنسانية ، وهى وإن خلت من أمثال أشيل وهيكتور واليوسيس وأجا ممنون ففيها حشد من الرجال والنساء العاديين قد أبدع تولستوى فى تصوير ملامحهم وكشف دخائلهم واستبطان دوافعهم النفسية ، ويستثنى جارنت شخصية القائد الروسى كوتوزوف ، فهو يراه يمثل البطولة الروسية القومية وتظهر فيه كل الصفات التى جعلت روسيا عظيمة ، فهو عنده من غير شك نظير لشخصيات هومر التى قدمها لنا فى الياذته .

ورواية الحرب والسلام أهم أعمال تولستوى الأدبية وأكبرها حجماً وأوسعها نطاقاً ، وهى مقسمة إلى ثلاثة أجزاء ، وهى على طولها وكثرة صفحاتها وامتداد آفاقها قوية السرد متدفقة الأسلوب ، تشيع فى شتى نواحيها الحيوية الغامرة المكثفة ، وتتجلى فيها عبقرية تولستوى الفنان فى أقوى صورها ، ولا يدرك قارئها الملل أو الفتور لأن فن تولستوى الساحر يؤكد العلاقة بين القارئ والشخصيات البارزة فى الرواية وينمى الألفة بيننا وبينهم حتى نصبح شركاء لهم فى مسراتهم وأحزانهم ، وقدرة تولستوى الخارقة فى استحضار المشاهد وتمثل المواقف تجعل قراءة هذه الرواية جزءاً من تجربة

هذا الكتاب للأحوال الاجتماعية التى كانت سائدة فى عصره غاية فى الدقة والإحكام والصرامة :

وضاق تولستوى بحياة المدن فلاذ بالريف واستأنف الحياة البسيطة التى يؤثرها ولم ينقطع عن التأليف ، وأقبل على كتابة كتيبات رخيصة الثمن ليقرأها أفراد الشعب ، وزادت هذه الكتيبات فى جميع أنحاء روسيا ، ولقيت رواجاً عظيماً ، وفى أثناء وعكة أصابته كتب تمثيلته المشهورة « قوة الظلام » وقد منعت إذاعتها الرقابة حيناً من الزمن :

وفى سنة ١٩٠١ رأت الكنيسة الروسية أن آراء تولستوى غير المحافظة تعارض تعاليمها ، فأصدرت قرار الحرمان ، وكان لهذا القرار تأثير مناقض لما أرادته الكنيسة ، فقد زاد هذا القرار جمهرة الشعب تعلقاً بآراء تولستوى ، وزاد مكانته فى نفوسهم علواً ، وظل تولستوى يوالى لإنتاجه الأدبى ، ولم تكن السنوات الأخيرة من حياته سنوات راحة وهدوء ، فقد آلمه سوء الأحوال فى بلاده وساعته الطرق المنيعة التى اتبعت فى إخماد ثورة سنة ١٩٠٥ ، وقد دفعه ذلك إلى أن يذيع فى الصحف الأوربية رسالته الحزينة التى بدأها بقوله « لا أستطيع التزام الصمت أكثر من ذلك » ونصح فيها القوم فى روسيا باتباع طريق الخلاص ، وذلك بالامتناع عن الكراهة وحب الانتقام ، ولم يكن كذلك راضياً عن حياة أسرته وأسراف زوجته ، وتاق إلى الفرار من الدار ، ولكنه كان يتحاشى مع ذلك الإساءة إلى زوجته ، ورأى أخيراً أنه لا بد له من فترة هدوء قبل أن يستقبل النهاية المحتومة ، ففر من داره فى إحدى ليالى الخريف فى صحبة أحد الخلفين من أصدقائه ، ولم تتحمل شيخوخته برودة الجو الممتلىء بالثلوج ووعثاء السفر ، فاضطر إلى التوقف عن السير فى منزل ناظر إحدى محطات السكة الحديدية ، وقضى نحبه فى هذا المنزل المتواضع يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ ، وكان لنعيمه دوى هائل فى مختلف أنحاء كرتنا الأرضية ،

الإنسان التي لا يعنى عليها النسيان ، فهي ليست رواية تقرأ كسائر الروايات ، وإنما هي فترة يحياها الإنسان في عالمها الضخم وبين أشخاصها الكثيرين الناهين منهم والمغمورين ، وما أزال أذكر في أثناء قراءتي لهذه الرواية اليوم الذى وصلت فيه إلى قراءة وصف تولستوى لمصرع الأمير أندريا بولكونسكى ، وهو من أنبل الشخصيات البارزة في هذه الرواية العظيمة وأحبها إلى قرائها ، فقد شعرت بأنى فقدت صديقاً عزيزاً أحبه وأوثره وأعجب بنبل نفسه ، وقوة خلقه ، وترفعه عن الدنيا والصغائر ، وظللت أياماً لا أستطيع المضى في متابعة القصة لما أصابنى من الحزن .

والعجيب من أمر هذه الرواية الطويلة بغير إملال أن الإنسان يأسف حينما ينتهى من قراءتها ، ويشعر بأنه كان يود أن تطول هذه المتعة ، فهي ليست من تلك الكتب التي يخيب أمل الإنسان فيها ، ويأسف على الأيام التي أضاعها في قراءتها ، لأنها مفخرة تولستوى ، بل هي مفخرة الأدب الروسى خاصة والأدب العالمى عامة وقد حاول تولستوى في هذه الرواية أن يصور عصرًا من العصور الحافلة بالأحداث الجليلة من جميع نواحيه ، وكانت حوادث هذا العصر مثيرة للعواطف والأهواء والخواطر والأفكار ، وموضوعها ذلك الصراع الرهيب بين الأمة الروسية ومطامع نابليون الذى رام أن يفرض سلطانه على أوروبا جميعها ويهزم جيش القيصر الإسكندر الأول ويستذل كبريائه ، ويخضع روسيا لسلطانه كما خضعت له ألمانيا والنمسا وأسبانيا وإيطاليا .

وتنتهى حوادث هذه الرواية التاريخية بانسحاب نابليون من موسكو ، بعد غزوه المشؤم لروسيا ، وهي تصور لنا مأساة هذا الانسحاب وفضائعه وقسوته نصويراً ينفردنا من الحرب وأهوالها وما بها من غدر وخسة ووحشية ، وهو يحدثنا في ذلك حديث العارف الواثق المحرب الصريح الذى لا ينافق ولا يضلل .

ولا يخفى الحقائق ، ولا يسمى الأشياء بغير أسمائها ، وهو يرينا تلك الحوادث الجليلة خلال تأثيرها على عقول الأشخاص الذين اشتركوا فيها ، وكانوا آلاتها المسخرة ، وإن كان بعض البارزين من هؤلاء الأشخاص عيشت بهم الأوهام ، وخيلت لهم كواذب الظنون أنهم مالكو ناصية الحوادث ومسيرو حركة الأقدار !

وقد اختار تولستوى ثلاث أسر من الأسر الروسية العريقة اشتبكت مصائر أفرادها بحوادث هذه الحرب وتقلباتها ، فأصبحنا نرى بعيونهم ونسمع بأذانهم ونقاسمهم آلامهم وأشجانهم حتى صار من الصعب على قراء الرواية الاعتقاد بأنهم لم يروا معركة أسترتلز أو معركة بورودينو الدامية وحريق موسكو وفضائع الانسحاب الفرنسى ، ثم نشاهد الأمة التي عانت هذه الكارثة ، وسالت دماء أبنائها وضحت بأنبل شبانها تبرا من جروحها وتسترد الصحة والعافية وتعود فيها الحياة إلى سيرتها ، وتجرى الأمور في مجاريها العادية .

ويدور محور القصة حول هذه الأسرات الثلاث ، وهي أسرة بولكونسكى وأسرة روستوف وأسرة بيزوكو .

والرواية كما قدمت حافلة بالشخصيات الكبيرة والصغيرة والسامية المنيفة والحقيرة الضئيلة ، ولكن فن تولستوى العظيم يسوى بينها في دقة الوصف وبراعة التحليل .

ويجذب اهتمامنا بوجه خاص ثلاثة من أبطال الرواية ، في طليعتهم الأمير أندريه بولكونسكى ، وهو رجل من ذوى الأخطار ومن الشخصيات التي لا تنسى ، وهو ابن قائد بارز له ماض حافل في تاريخ روسيا الحربى ، وهو أرستقراطى النزعة جميل الصورة مترفع متأبه ، يشعر بأنه أسمى من حوله خلقاً وعقلاً ، ثم حركاته على احتقاره للناس واستصغاره لشأنهم ، ولكن هذا الرجل الأصيل المتكبر يحمل برغم ذلك قلباً

الذى لم يدع فخرأ ولم يطلب لنفسه أجراً ، وهكذا يحمل ذكر بطل الموقف ويطوى أمره ، ويقنع الرجل من الغنيمة بالإياب .

وفي معركة أوسترلitz أقتحمت صفوف الجيش الروسى ، ولأذت الجنود بالفرار ، وعبثاً حاول الأمير أندريا الذى كان يحمل العلم أن يمنع تيار الحرب ، وأصابته رصاصة فخر صريعاً فاقد الوعي ، وقد شعر وهو ينحدر فى غيبوبة فقدان الوعي بتفاهة ذلك الحقد الحربى الذى كان يسعى إليه ويعنى نفسه فى طلابه ، وكأنما كشف له شعوره باقتراب الموت حقائق الحياة التى لم يرها من قبل ، ويصف تولستوى هذه الحالة التى ألت بالأمير أندريا بقوله « فتح عينيه وهو يؤمل أن يرى كيف انتهت المعركة بين المدفعى الروسى والفرنسى وكان يتلهف على معرفة مصير المدفعى الأحمر الشعر وهل غاله الموت أو كتبت له النجاة وهل سلم المدفع أو استولى عليه الفرنسيون ، ولكنه لم يستطع أن يرى شيئاً ، ولم ير فوقه سوى السماء تلك السماء العالية ولم تكن صافية الأديم ولكنها برغم ذلك مفرطة فى العلو وكانت تمر بها متمهلة سحب شهب خفيفة ، وقد ساد الصمت وعم الهدوء ، وقال الأمير أندريا لنفسه « ما أشد اختلاف هذه الحالة عما كنت فيه وأنا منطلق ، فلم تكن الحالة كذلك ونحن جميعاً منطلقون صائحين محاربين . . وكيف لم أر قط هذه السماء الرفيعة قبل ذلك ؟ وما أكثر سرورى لأننى عرفت ذلك أخيراً ، نعم ! كل شيء فارغ ومتاع الغرور سوى هذه السماوات غير المنتهية ، لا شيء . لا شيء على الإطلاق غيرها ، وحتى هذه لا شيء سوى صمت وهدوء ! والحمد لله ! » .

ويثوب إلى الأمير أندريه وعيه ف يرى نابليون واقفاً إلى جوار فراشه وهو ينظر إليه نظرات إعجاب ، ويظنه نابليون ميتاً فيهمهم قائلاً « ميتة نبيلة » ولكن سرعان ما يدرك أنه لا يزال حياً فيقدم له التهنئة

كريمًا رقيقاً قوى العواطف عميقها ، وهو يحب والده العجوز وشقيقته الأميرة ماريا وصديقه الوحيد بيير بيزوكو .

وبيير بيزوكو هذا شاب ضخم الجثة ينقذ الصقل ولكن الأمير أندريه بطبيعته الملهممة النفاذة ، وبصيرته التى تحترق الأغشية والحجب يرى وراء عيوب بيير البادية للعيان قلباً نقياً ونفساً صافية مخلصه ، فيختصه بحبه وتقديره ، ويصطفيه ويقربه من نفسه ، وممن يضمهم لهم الأمير أندريا الاحتقار زوجته الأميرة ليزا . ويلتحق الأمير أندريا بخدمة الجيش ، ويصبح ضابط أركان حرب لكوتوزوف ، ويمكن ذلك تولستوى من أن يرينا لإدارة الحرب من الداخل ، وطريقة القواد الحربيين فى وضع الخطط .

والصفة الغالبة على طباع الأمير أندريه هى الطموح وطلب المجد ، وهو يحضر معركة أوسترلitz ، ويخوض غمارها ، وتنجلي فيها شجاعته وثباته ووزائمه ، وتكسبه هذه الصفات الثناء والتقدير ، ولكن هذه التجربة تغير نظراته إلى الحياة ، فهو يرى بعينه أن الشجاع البهمة يندر أن يثاب لشجاعته ، بل الأغلب أن يهضم حقه ، وينكر فضله ، ويوجه إليه اللوم والتأنيب ، ففى أثناء المناوشات التى حدثت عند مدينة إمز كان الذى جنب الجيش الهزيمة ضابط من ضباط المدفعية مجهول الشأن اسمه توشن ، فقد ظلت مدفعيته تطلق نيرانها على الفرنسيين حتى تمكنت مؤخرة الجيش الروسى من الارتداد ، وأنقذ الجيش من الإبادة والدمار ، واختلط الأمر على رؤساء توشن ، وعجزوا عن إدراك ما تم على يديه ، فهموا بتعنيفه وزجره لأنه فقد بعض المدافع فى خلال دفاعه الحميد ، فساء ذلك الأمير أندريا ، وانبرى للدفاع عن الرجل والإشادة بموقفه ، وأعلن أنه أنقذ الجيش ورد عنه الهزيمة ، ولكن رؤساءه استكثروا ذلك على توشن البطل المتواضع

لشجاعته الفائقة وحسن بلائه ، ولكن الأمير أندريه الذى أدرك حقيقة المجد الحربى الأجوف لا تحفل بهذا الشئ من الرجل العظيم الذى كان يعجب به ويكبره بالأمس .

ويعود الأمير أندريه إلى أسرته التى خالته فى عداد الموقى فيجد زوجته قد ولدت طفلاً وماتت فى المخاض ، وتسرى الأسرة بمقدمه بعد أن غلب عليها الحزن والاكتئاب ، وقد تركت تجربة الحرب فى نفسه آثاراً قوية وغيرت من حالته النفسية فازداد رقة نفس ورهافة حس ، واشتمل عليه حزن صامت ولاج ، وصار يعتقد أن حياته قد انتهت ، وأنه يعيش عبثاً ، لغیر غاية معلومة ولا هدف مقصود ، وفى هذه الفترة الكامدة والأزمة النفسية الحازبة يلقي الفتاة الفاتنة نتاشا ، وهى من أجمل بطلات الرواية ، فهى فرحة الحياة وبهجتها مجسمة ، وهى بسمة مشرقة فى فم الزمان ، فتملك لب الأمير أندريا وتأخذ بمجامع قلبه ، ويعاوده الاهتمام بالحياة ويغمر السرور قلبه ، وتصبح نتاشا خطيبته ، ولكن معارضة الأسرة تؤخر الزواج .

ويسافر الأمير أندريه إلى الخارج ، ويعرض لنتاشا شاب وسيم الطلعة مزهو بنفسه لا يعرف التردد ولا الاحجام فى غزو قلوب النساء والتغريبهن ، وهو مع ذلك مجوف مثل أغلب الرجال من هذا الطراز ، وتؤخذ نتاشا بتهاويل جماله وتغلب على أمرها فتكتب رسالة إلى الأمير أندريا لفسخ خطوبته ونكث عهده ، وترتضى الحرب مع هذا الشاب التافه المفتون ، واسمه أناتول كوراجين ولكن تحبط الخطة فى اللحظة الأخيرة وتمنعها أسرته من ذلك ، ثم تنجلي غمرة نتاشا وتستفيق من هذه الغاشية ، وتذكر أن هذا الشاب لا يصلح أن يكون لها نداءً ، وأنها أسرفت فى الإساءة إلى الرجل الأئى الكبير الروح الأمير أندريا ، ويشتد بها الندم وتبكيك الضمير حتى تهتم بالانتحار ، ويقف الأمير أندريا على القصة كاملة مفصلة فتصاب كبرياؤه

وينجرح إباؤه ، ولا تمكنه طبيعته الروحية ونفسه السامية من فهم هذا اللون من ألوان الفتنة والإغراء الذى أجاد تولستوى وصف أعراضه وتحليل أجزائه لإجادة العلم بأهواء النفوس ونزعات الغرائز .

ويرفض الأمير أندريا أن يسامح نتاشا ، ويأتى أن يغتفر لها ذنبها ، ويعاوده التبرم بالحياة والشعور بعث الأقدار ، ويبحث عن غريمه كوراجين فلا يقف له على أثر ، ويعود وهو فى هذه الحالة النفسية القلقة الناقمة إلى خدمة الجيش ، ويشترك فى معركة بورودينو ويصاب فيها بجرح شديد ، ولم يكن الجرح فى هذه المرة من الجروح السليمة العاقبة ، وإنما كان جرحاً خطيراً مميتاً ، ولكن قبل أن يطويه الموت يهتئ له القدر بعض لحظات من السعادة والمتعة ، وذلك أن أسرة روستوف وهى تحاول الفرار من موسكو التى اقتربت منها الجنود الفرنسية تضحى بما تملك من أثاث وغيره لانقاذ جرحى الحرب الروسين ، وكان من بين هؤلاء الجرحى المجهولين الأمير أندريا .

ويتلاقى الحبيبان السابقان ، ويبدع تولستوى فى وصف هذا التلاقى الأخير المؤثر المحزن ، ويتجدد الأمل فى شفاء الأمير أندريا واندمال جرحه ، وقد صفا الود بينه وبين نتاشا ، وعادا إلى سابق عهدهما ، ولكنه أمل كاذب وبرق خلب يتلوه الموت الصادع الفاجع المحتوم .

والأمير أندريا من أبطال تولستوى الذين يلقون الموت فى استسلام وقور وهدوء نبيل ، فالحياة فى نظره لا تستحق أن يؤمل فيها ويؤسى لفقدانها ، وهو إن كان يتعلق بها فليس ذلك لأنه يخشى الموت ، وإنما لأن الحياة معناها نتاشا ، وهى الفتنة والسحر والبهجة والإشراق ، ويصف لنا تولستوى شعور الأمير أندريا بالموت وقد أخذ يدب فى أوصاله وتلفه ظلمته وصفاً فلسفياً نفسياً لا يحسنه غيره .

وبملاً الحزن لموته قلب شقيقته ماريا وقلب نناشا ،
ويرينا تولستوى فى موت الأمير أندريا وهو على
أبواب الحب والسعادة مأساة الحرب وما تدفعه لها
الإنسانية من غالى الثمن وما تقدمه فى سبيلها من نفيس
التضحيات .

والبطل الثانى فى الرواية بيبى بيزوكو ، وهو أعرق
فى روسيته من الأمير أندريا الذى صقلته الحضارة
الأوربية ، ويختلف بيبى عن صديقه أندريا فى أشياء
كثيرة ، فهو رجل تنقصه الرشاقة واللباقة والصقل وقوة
الإرادة ، ويعجب الإنسان فى بادئ الأمر من هذه
الصدقة التى نشأت بينهما ، ولكن فى سياق الرواية
تتكشف لنا طبيعة بيبى الحقيقية الحرة النقية البريئة من
التكلف والعامرة بالإخلاص والود الصادق والحب
العميق والوفاء النادر ، وهو رجل يحسن فهم من حوله ،
وإن كان من حوله لا يحسنون فهمه ، وهو ينطوى
لتناشا على الحب وإن كان يكتم هذا الحب ويبذل جهده
ليصلح ما بينها وبين صديقه الأمير أندريا .

وهو مثل الأمير أندريا تتأثر حياته بالحرب ،
ولكن بطريقة أخرى ، فهو لا يلتحق بالخدمة العسكرية
مثل الأمير أندريا ، ولا يجرى ، ولكنه يرى جوانب
أخرى من المأساة المظيمة ، فهو يحضر حريق موسكو ،
ويقع فى أسر الفرنسيين ، ويحملونه على السير معهم
فى تفهقرهم الرهيب ، ويلبس عن قرب الشقاء الذى
يعانيه الأفراد الماديون فى هذا الانسحاب وكيف
يحملون الآلام الموحشة فى جلد وصبر فتنتشله هذه
التجربة من وهدة اليأس المظلم ، وتبصره بمعنى الحياة ،
وأشد ما يؤثر فى نفسه سلوك الجندى المزارع بلاتون
كاراتاييف ، وهو على بساطته وخفاء شأنه من
شخصيات تولستوى البارزة الممتازة ، ولم يكن لهذا
الرجل نصيب من الذكاء والألمعية والخيال ، ولكنه
كان موفور الحظ من سباحة النفس وطيبة القلب
والحب الصافى الخالص لجميع الناس ، وقد كان مصيره

حزناً ، لأن الفرنسيين كانوا يطلقون النار على الأسرى
الروسيين الذين يعجزون عن مسيرة الجيش المنسحب .
ويرى بيبى صاحبه وقد وهنت قوته ونال منه
الإعياء فلا يطيق أن يتصور العقوبة التى ستحل به ،
وفى ذات صباح يرى بلاتون وقد عجز عن السير ،
وجلس فى ظل شجرة وقد بدت على وجهه أمارات
السرور والارتياح والطمأنينة وقبول ما تأتى به الأقدار ،
ويسمع بيبى بعد ذلك دوى طلقات الرصاص فيعرف
أن هذا الرجل الصالح قد لقي حتفه ، ويحز فى نفسه
مصرع هذه النفس الزكية النقية التى لم تقارف الإثم
ولم تعرف الإساءة .

وتترك شخصية بلاتون هذا المزارع المغمور أثراً
لا يزول فى نفس بيبى ، ويتخذ تولستوى من مصير
بلاتون وسيلة ليرينا تفاهة الحرب وعسفها ، فن أكبر
الكبائر وأفظع المفطعات قتل مثل هذه النفس المحببة
الجميلة البريئة من العيوب والذنوب .

وكان بيبى كلما تكاثرت آلامه استعذب الصبر
ووجد فيه راحة وسلوى ، وهو يخرج من معمعان
الحرب رجلاً قد صهرته الآلام وتمرس بالآفات حتى
كشف لبصيرته سر الحياة الذى تخفيه عنا طراوة
العيش والتقلب فى النعيم .

ويصف تولستوى تفهقر الجيش الفرنسى وصفاً
رائعاً ، ويصف بطولة الجيش الروسى الذى كان
ينقص جنوده الكساء والغذاء ولكنهم كانوا مع ذلك
يحاربون بروح قوية ونفوس صابرة محتسبة بهون عليها
آمال الأهوال فى سبيل الدفاع عن الأوطان .

والأميرة ماريا هى البطلة الأولى فى الرواية ، وهى
طراز نبيل من السيدات العظيمات اللب الكبيرات
القلب المخلصات الخ الحيات ، وقد صورها تولستوى
بالصورة التى تخيلها لوالدته ، وهى لا تمتاز بالذكاء
والفهم ويغلب على طبيعتها الحزن ، ولكن جمال نفسها
الروحى يحمل على الإعجاب بها والحب لها ، وهى

التي تستطيع أن تدخل العزاء على قلب والدتها وتهون عليها الخطب .

وتبدل نناشا جهدها لتسليتها والدتها ، وفي هذه المحاولة تعود إلى سرتها الأولى ، فهي تعيش بالعواطف القوية والزعات الكريمة التي كادت تحطمها وتقضي عليها ، وقد تغيرت كثيراً ، فحينما تلقى بير بعد غيابه الطويل وعودته من الأسر يكاد لا يعرفها ولا يستطيع أن يلمح في وجهها الشاحب النحيل وجه نناشا المحبوبة المعبودة الممتلئة بالحياة .

ويتقدم بير لخطوبتها ، وتوافق نناشا وأسرتها على هذه الخطوبة ، ويعود إلى نناشا لإشراقها وهجتها ، ويسوء ذلك حيناً من الزمن الأميرة ماريا ، لأنها ترى في ذلك حثثاً بعهد أخيها الأمير أندريا ونسياناً لذكراه ، وتزوج نناشا من بير ، ويرينا تولستوى نناشا أمّاً لأربعة أطفال ، وقد أصبحت ربة منزل مقتصدة مدبرة معنية أشد العناية بأطفالها وأسرتها ، وقد قصرت اهتمامها على أفراد أسرتها . . . وقد نستدل من ذلك على رأى تولستوى في المرأة بوجه عام ، فهو لا يرى لها وجوداً فردياً ، وليست المرأة في رأيه غاية في نفسها ، وإنما هي وسيلة للنوع ، وربما كان إمامه في هذه الناحية الفيلسوف شوبنهاور الذي كان تولستوى يقرأ كتبه ويبدى إعجابه به .

ولا يتسع المجال للحديث عن سائر الشخصيات التي تعج بها الرواية ، وقد أجاد تولستوى تصوير الشخصيات الثانوية والأقل أهمية في الرواية لإجادته في تصوير الشخصيات الهامة البارزة في الرواية ، وقد قدم لنا صورة واضحة ممتعة لأفراد أسرة روستوف ، والغلام الناشئ بيتيا روستوف الذي قتل في المعركة لا يقل إبداعاً في تصويره عن نناشا ، فهو قوى العواطف شديد التحمس في وطنيته ويميل إلى البطولة ويسلك سلوك الأبطال ، ويصر وهو في السادسة عشرة من عمره على الاشتراك في الجيش للدفاع عن وطنه ،

ثعجب بأخيها الأمير أندريا وتحبه وتكبره وينال منها مصرعه ، وتحب والدها وتحتمل نزوات شذوذه وبدوات طغيانه واستبداده ، وتظل إلى النهاية تحمل له الحب ، وتدين له بالطاعة ، ولا تضيق بانحرافات شيخوخته ، ولا تضمر سوى الحب لزوجة أخيها الأميرة ليزا برغم أنانية ليزا وفرط إعجابها بنفسها وإدلالها بجملها .

والبطلة الثانية هي نناشا روستوف ، وهي أشد شخصيات الرواية جاذبية وفتنة ، وقد صورها تولستوى على مثال حي وهذا المثال هو شقيقة زوجته ، وتمتاز بقدرتها على جعل من حولها يتعلقون بها ، فهي معبودة والديها وإخوتها وكل من يتصل بأسرتها أو يزور دارها ، وهي متفائلة بطبيعتها مقبلة على الحياة ترى في الناس الجوانب الخيرة وتحب الحياة حباً جمّاً ، فهي التي تبتكر للجماعة ضروب الألعاب وألوان اللهو ، وموجز القول أن ذلك العهد السحري عهد ما بين الطفولة والبلوغ حيث تكون الدنيا في نظر الإنسان جديدة نضرة لم يتمثل في صورة أجمل من الصورة التي تبدى بها في شخصية نناشا .

وهذا السحر هو الذي لب الأمير أندريا الرزين النبيل ، وفي الأحداث المروعة التي تعج بها الرواية ، وبين غبار الحروب والدماء المسفوكة تشرق نناشا كالربيع الطلق والنور المضيء في الظلام .

وتشعر نناشا بالعزلة والوحدة بعد موت الأمير أندريا ، ويدوى عودها ، ويغض سرورها ، وتمضي الساعات الطويلة في صمت مؤلم ناظرة إلى المكان الذي كان يشغله الأمير أندريا ، وألح عليها السقم حتى فقدت الأسرة الأمل في شفائها وإنقاذ حياتها .

وفي هذه الفترة ترد إلى الأسرة أنباء محرقة ، وهي مصرع أخيها الأصغر بيتيا في المعارك الأخيرة ، وتكاد والدتها تنجن من الحزن ، وتلجأ إلى نناشا فهي وحدها

ويجتهد أصدقاء أخيه في تجنبه مواطن الخطر ، ولكن شجاعته تدفعه إلى اقتحام الأخطار ، ويلقى منيته مستهدفاً للخطر في أحد المواقف الحرجة ؟

وضابط المدفعية الروسى توشن يمثل في رأى تولستوى طراز البطولة الروسية الصادقة ، فهو البساطة والتواضع مجسمين ، وشجاعته الفائقة ليست شجاعة دموية مفترسة ، وإنما شجاعة بالقلب العاطف الرقيق . ومسرح الرواية واسع فسيح ، والممثلون فيها كثيرون بينهم عاهل روسيا القيصر الإسكندر الأول ونابليون والقائد الروسى كوتوزوف وعدد كبير من القواد والوزراء والأعيان ، وينتقل بنا تولستوى ما بين صالونات بطرسبرج وقصور موسكو إلى ميادين الحرب وثكنات الجند ، ومن العواصم الزاهرة إلى الضواحي والأقاليم ، وكل هذه الحوادث المتوالية والصور المتلاحقة تدور حول أشخاص الأسر الثلاث ، ولكن البطل الحقيقي للقصة هو روسيا في صراعها الدامى ضد غارة الأجنبي على أرضها .

والفكرة الفلسفية الكبرى التى تطالعنا من وراء سطور الرواية وحوادثها المتنوعة هى العلاقة بين رجل الأقدار والقوى التى يظن نفسه قادراً على تصريفها وتوجيهها الوجهة التى يريد بها ، فن نابليون ومن القيصر الإسكندر ؟ أنهما ألعيب فى يد القدر ، وتولستوى يرى أن الإرادة البشرية ليس لها أثر يذكر فى توجيه الحوادث ومصائر الإنسانية وسير الحضارة ، ومن ثم سخرته فى هذه الرواية بنابليون الذى كان يظن نفسه سيد الأقدار ، واعجابه العميق بالقائد الروسى كوتوزوف الذى كان يشعر بأنه مسير لا مخير .

وبحاول تولستوى تدعيم هذه الفكرة الفلسفية التى تقوم عليها روايته التاريخية بأن يرينا سفاقة قواد نابليون البارزين المعروفين ، وتفاهة تفكيرهم وفرط اغترارهم بشاراتهم اللامعة وكساوهم العسكرية الفخمة ، ولا يستثنى من احتقاره القواد الروسين .

وهو نخص باعجابه كوتوزوف لأن كان مثله قدرياً ، وكان شأنه أن يرصد الحوادث ، ويترقب السوانح ، ويستسلم للأقدار ، ولم تفسد هذه الفكرة الفلسفية على تولستوى فنه ، لأنه كان فناناً أصيلاً قبل أن يكون مفكراً فلسفياً . . ولذلك استطاع أن يمزج الفكرة الفلسفية بالصورة الفنية للرواية مزجاً فنياً رائعاً ، وقصر خاتمة الرواية على شرح مذهبه فى فلسفة التاريخ شرحاً وافياً ، وقد عنى أخيراً بدراسة هذه المؤخرة الفلسفية دراسة عميقة جدية أحد المفكرين العصريين المحيدين وهو الأستاذ برلين ، وضمن خلاصة درسه لها كتاباً قيماً ظهر فى أواخر سنة ١٩٥٣ وأسماه هذا الاسم الذى يبدو غريباً وهو « القنفذ والثعلب » وقد أظهر فيه تأثر تولستوى بفلسفة المفكر الفرنسى دى مايستر .

مختارات من رواية الحرب والسلام

فى الفصل الحادى عشر من الجزء الأول (ما قبل نلست) يصف لنا وداع الأمير أندريا لأبيه « كانوا جميعهم ينتظرون عودة الأمير أندريا الذى ذهب إلى حجرة والده الأمير العجوز ، فقد أرسل إليه قائلاً إنه يود أن يتحدث معه منفرداً

ووجد الأمير أندريا عند دخوله الحجرة أباه جالساً إلى منضدة الكتابة وقد وضع على عينيه نظارة وارتنى طيلساناً أبيض اللون ، وكان من عادته ألا يسمح لأحد أن يراه وهو فى مثل هذا الرداء ، فصعد فيه النظر وقال « إذن أنت راحل » وعاد إلى الكتابة

« نعم ، لقد جئت لأودعكم »

فقدم خده لابنه قائلاً « قبلنى ، وأشكرك وأكرر شكرى لك » .

« من أجل ماذا تشكرنى ؟

« من أجل عدم بقائك في دارك متعلقاً بخيوط مزر زوجتك ، فالخدمة العسكرية مفضلة على كل شيء - ومن أجل ذلك أشكرك » .

وعاد ثانية إلى الكتابة ، ولكنه كان مهتاج الأعصاب إلى حد أن الريشة أحدثت صريراً وتناثر المداد في كل ناحية « إذا كنت تريد أن تقول شيئاً فاني مصغ إليك »

« زوجتي - إني غير مرتاح لتركها في هذه الحالة ، فهمي عبء في يديك » .

« وماذا تريد أن تقول غير ذلك ؟ قل شيئاً أكثر إصابة للهدف من ذلك » .

« عند ما يقترب الوقت أرسل إلى موسكو في طلب طبيب ، وليحضر هنا في الوقت المناسب . . . » . فنظر الأب العجوز إلى ابنه نظرة صارمة مبدئياً دهشته :

« بطبيعة الحال أعرف أنه لا يمكن عمل شيء إذا ثارت الطبيعة على العلم » . واسترسل أندريا قائلاً وقد ظهر عليه التأثير « وإني أعرف أنه من بين ألف حالة من أمثال هذه الحالات ربما لا يحدث خطأ إلا في حالة واحدة ، ولكن هذا هو ما توهمته وما خطر بفكري كذلك ، ولقد تقسمتها الهموم نتيجة لحلم رأيته في منامها » .

فتمتم العجوز قائلاً « حسن ، سأنظر في ذلك » ووقع باسمه ملوحاً بيده عن قصد ، وأضاف قائلاً وقد علت وجهه ابتسامة « أنه أمر بغيبض » . « ما هو هذا الأمر البغيض ؟ »

فقال العجوز في غير مواربة « زوجتك » . « إني لم أفهم ما تريد » .

« لمن كلهن من هذا الطراز يا ولدي ، ولا نستطيع أن نمسك عن الزواج ، فلا تخف ، فاني لن أذكر شيئاً لأى إنسان ولكنك تعرف ما أعرف ، وهذا هو الحق » وأمسكت أصابعه الناحلة المعروقة بيد ابنه

وهزتها في شيء من العنف بينما كانت عيناه كأنما تحاولان كشف داخلته .

وكان جواب الأمير أندريا على ذلك أن تنهد - وهو اعتراف بغير كلام .

وطوى الأمير العجوز الرسائل في غمضة عين وختمها .

وقال في إيجاز « حسن ، لا حيلة لنا في ذلك ، وهي جد حسناء ، فلا يشق عليك الأمر وسنعمل كل ما نستطيع » .

وأمسك أندريا عن الكلام ، كان مكروباً ولكنه كان في الوقت نفسه سعيداً لأن والده قد أدرك ما يريد « لا تشغل بالك بها ، وسنعمل كل ما يمكننا ، وخذ الآن هذه الرسالة لميشيل لإلاريونوفتش ، لقد طلبت منه أن يتيح لك فرصاً حسنة وأن لا يبقيك معه زمناً طويلاً ، وعليك أن تخبره أنني أذكره بالخير والتقدير ، واكتب لي كيف يتلقاتك ، فإذا رضيت فابق معه ، وابدل ما في وسعك ، وإذا لم ترض فاتركه فان ابن نيقولا بولكونسكى لا يمكن أن يظل مع رئيس لا يرتاح إلى العمل معه ، ادن منى » .

وكان يتحدث في سرعة شديدة ويبتلع أكثر الكلمات ، ولكن ابنه فهم عنه ، وتبعه إلى المكتب ، وفتح العجوز وأخرج منه مفكرة مكتوبة بخط دقيق ولكنه واضح وقال له « من الأرجح أنني سأموت قبلك ، وهذه مذكرة ترسل للإمبراطور بعد موتى ، وهذه رسالة وهذا إذن صرف ، وهو مكافأة أريد تقديمها لمن يكتب كتاباً عن غزوات سواروف فارسليهما إلى الأكاديمية ، وقد كتبت بعض مذكرات - تستطيع أن تقرأها بعد رحيلي من الدنيا ، وقد تفيد منها » .

وشعر أندريا بأنه من غير اللائق أن يوجه إلى والده كلمات تنطوى على الأمل في حياة طويلة وعمر مديد له ،

فاكتفى بأن يقول « ستنفذ رغباتك جميعها بلا أدنى ريب » .

فقال الأمير العجوز وقد أعطى يده لابنه ليقبلها « والآن استودعك الله ، ولتذكر يا أمير أندريا أنه لو اختطفك الموت فإن قلبي العجوز لا بد أن ينفطر » — ثم نظر في وجهه نظرة شاملة وأضاف قائلاً « وإذا بلغني أن ابن نيقولا بولكونسكى قد قصر في القيام بواجبه فاني سيعروني الحجل ويجلاني العار » وقد نطق بالكلمات الأخيرة هامساً .

فقال الأمير أندريا مبتسماً « كان يمكن أن تجنب نفسك مشقة الإفضاء إلى بذلك ، وإنى كذلك لى طلب أتقدم به إليك ، فإذا سقطت قتيلًا وولد لى ولد فاحتفظ به عندك ، والتمس منك أن تنشئه هنا . »

« ولا أجعله فى رعاية زوجتك ؟ »

وحاول أن يضحك ولكن لم يكن الأمر أكثر من هزة عصبية حركت ذقنه ودفع ابنه من الحجرة قائلاً « اذهب الآن » .

وفى الفصل الثلاثين يصف لنا تولستوى حالة الأمير أندريا بعد إصابته فى المعركة قائلاً « كان الأمير أندريا راقداً طوال ذلك الوقت فى البقعة نفسها فوق تل براتزن ممسكاً بيده قطعة من قماش العلم والدم يسيل منه وهو يرسل فى غير وعى تأوهات ضعيفة شاكية مثل الأطفال ، وحينما اقترب المساء أمسك عن اليأوه وظل راقداً فاقد الإحساس كل الفقد ، وفجأة فتح عينيه ، ولم يكن عنده فكرة عن مرور الزمن ، وشعر بأنه حى وبألم حاد من جراء جرح ملتب فى رأسه ، وكانت أول فكرة خطرت له هى :

« ما هذه السماء اللانهائية التى رأيتها فى هذا الصباح ولم أرها من قبل ؟ وهذا الألم كذلك جديد لم أجربه من قبل ! إني لم أعرف شيئاً — لم أعرف شيئاً مطلقاً حتى الآن ، ولكن أين أنا ؟ »

وأصغى ، وسمع صهيل عدة خيول وأصوات بشر يقتربون منه ، كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية ، فلم يحول رأسه ، وظل راقداً ينظر إلى السماء عالية فوقه ، وكان يرى زرقها التى لا تسبر أعماقها من بين السحب العارضة ، وكان القادمون على الخيل نابليون واثنين من ضباط أركان الحرب ، وكان نابليون قد طاف بميدان المعركة جميعه وأصدر أوامره لمد المدفعية التى كانت تطلق النيران على الخندق عند أوجست بالمساعدة ، وكان الآن يفحص الجرحى والقتلى الذين تركوا فى الميدان ، وقال حينما رأى جندياً روسياً طويل القامة راقداً ووجهه متجه إلى الأرض وعنقه أدكن وذراعه قد تصلبتا تصلب الموت « رجال حسان ! » وقال أحد ضباط أركان الحرب وقد أرسلته المدفعية الموجهة إلى أوجست « إن ذخيرة مدافع الميدان قاربت النفاد يا سيدي » .

فأصدر نابليون أمره وقد تقدم خطوات قليلة قائلاً « احضر الاحتياطى ، ووقف إلى جانب الأمير أندريا الذى كان لا يزال ممسكاً بسارية العلم المكسورة ذلك العلم الذى استولى عليه الفرنسيون ليكون دليلاً على الانتصار » .

وهتف الإمبراطور قائلاً « ميتة مجيدة » . وأدرك الأمير أندريا أن المتحدث هو نابليون ، وأنه يتحدث عنه ، ولكن الكلمات دوت فى أذنيه دون أن يحفل بها ونسيها فى الحال ، وكان رأسه ملتباً ، وكانت قواه فى هبوط من جراء الدم المتدفق منه ولم يكن يرى سوى الزرقة الأبدية البعيدة ، وقد عرف نابليون — الذى كان بطلاً فى رأيه — ولكنه فى تلك اللحظة رآه صغيراً . فما أضال هذا البطل وما أقل شأنه بالقياس إلى تلك الرسالة التى جاءت إلى روحه من السماء التى لا تقاس أبعادها ، فما يقال ومهما يكن شأن الذى يدنو منه فإن ذلك كله أمور لا يؤبه لها ، ولكن سره وقوفهم ، لأنه كان يشعر شعوراً غامضاً بأنهم سيعينونه

على العودة إلى الحياة تلك الحياة التي بدت له جديدة بأن يحياها ما دام قد بدأ يفهمها ، واستجمع قوته ليتمكن من الحركة وليرسل صوتاً ، وحرك قدمه وأناناً وأهياً .

فصاح نابليون قائلاً « إنه ليس ميتاً ! احمليه إلى نقالة الجرحى » .

وركب الإمبراطور ليلقى المارشال لان الذي ابتسم ورفع قبعته وهنأ الإمبراطور على الانتصار .

ولم يتذكر الأمير أندريا سوى القليل بعد ذلك ، فالألم الذي سببه له حمله إلى النقالة واهتزازها وجس الجرح جعله يعود إلى فقدان الوعي ، ولم يشب إلى رشده إلا في المساء وهو محمول إلى المستشفى مع الكثيرين من الروسيين الجرحى أو الأسرى ، وفي أثناء الانتقال أفاق ثانية واستطاع أن يدير طرفه فيما حوله ، بل استطاع أن يتحدث ، وكانت أولى الكلمات التي سمعها صادرة من ضابط فرنسي وكل إليه أمر الإشراف على الجرحى :

« علينا أن نقف هنا ، فإن الإمبراطور سيمر بنا ، ولا بد أن نمتعه بالنظر إلى هؤلاء السادة » .

فقال آخر « الأسرى كثيرون في هذه المرة - جزء كبير من الجيش الروسي ، لا بد أنه عنده ما يكفي منه » .

فقال المتحدث الأول مشيراً إلى ضابط روسي جريح يرتدى سترة أحد خيالة الحرس « ولكن هذا كان كما يقولون رئيس حرس الإمبراطور الإسكندر جميعهم »

فعرف بولكونسكى الأمير ريبنين الذى لقيه في أحد مجتمعات بطرسبرج ، وكان بجانبه ضابط شاب يناهز عمره التاسعة عشرة جريحاً .

وجاء نابليون نخب به جواده وأدنى عنان جواده على مقربة منهما وسأل وقد رأى الجرحى « من أسمى هؤلاء رتبة ؟ »

فقبل له إنه الأمير الاى الأمير ريبنين « أنت قائد الحرس الإمبراطورى ؟ » « إنى قائد فرقة فحسب » .

« لقد قامت فرقتك بواجبها خير قيام »

فأجاب ريبنين « إن الشناء من القائد العظيم هو خير ما يثاب به الجندى »

فقال نابليون « إنى أقدمه بارتياح عظيم ، ومن هذا الشاب الذى معك ؟ »

فذكر له ريبنين اسم العقيد سشنين ، فنظر إليه نابليون وقد علت وجهه ابتسامة :

« أنه جد صغير للمغامرة فى مثل هذه الأخطار » . فتمتم سشنين قائلاً بصوت مختنق « إن الشباب لا يحول دون الشجاعة » .

« لقد أحسنت الجواب ، وستفعل ما تقول »

ووضع الأمير أندريا كذلك فى الصف الأول اظهراً لعظمة الانتصار واجتذب نظر الإمبراطور ، وتذكر نابليون أن رآه وهو راقد فى الميدان

« وأنت أمها الشاب الشهم كيف حالك ؟ » .

فرمقه بولكونسكى بعينه ولكنه لم يتكلم ، وقبل ذلك بخمس دقائق نطق بكلمات قليلة وجهها إلى الرجال الذين كانوا يحملونه ، ولكن الآن اكتفى بالنظر إلى الإمبراطور ولزم الصمت ! فبعد كل شيء ما قيمة اهتمامات نابليون وكبرائه وعجبه ؟ وما هو البطل نفسه حينما يوازن بسماة العدالة والرحمة المحبذة الرائعة التي استشعرتها روحه واكتنبت سرها ؟ لقد بدا له كل شيء تافها ضئيلاً لا يشبه من أى ناحية تلك الأفكار الجدية الجليلة التي طالعه بها ما اعترى جسمه من الوهن واستنفاد القوى وتوقع الموت ، فحينما كانت عيناه تلحظان الإمبراطور كان يفكر فى تفاهة العظمة وهوان شأنها - وتفاهة الحياة التي لا يعرف أحد غايتها ولا يدرى نهايتها - بل والأشد خطورة من ذلك هوان شأن الموت الخبأ سره عن الأحياء .

ولم ينتظر نابليون جواب الأمير أندريا وقال « اعتنوا بهؤلاء السادة واحملوهم إلى الخيم ، ودعوا الدكتور لارى يتعهد جراحاتهم ، وسنلتقى مرة ثانية يا أمير ريبنين »

وتركهم وقد تألق وجهه من الارتياح .

ولما رأى الجنود الذين كانوا يحملون بولكونسكى عطف الإمبراطور على الأسرى وأهتمامه بأمرهم أسرعوا في إعادة الأيقونة الصغيرة التى علقها شقيقته بعنقه ، وكانوا قد سرقوها منه ، وشعر فجأة بأنها مدلاة على صدره فوق سترته دون أن يعرف كيف وضعت ولا متى وضعت .

وحينما فكر فى شعور أخته العميق بالاحترام والتقوى الخالصة والعبادة قال لنفسه « ما أسعدنا لو كان كل شىء من البساطة والوضوح كما تعتقد ماريا ! وحقيقة أنه سيكون من الخير أن نعرف أين نلتمس العون ونطلب الراحة فى هذه الحياة وماذا ينتظرنا بعد الموت ، وسأكون سعيداً هادئ النفس رخي البال إذا استطعت أن أقول « أيها المخلص رحمة بى » ولكن لمن أوجه ذلك القول ؟ إن تلك القوى الخفية غير المحدودة التى لا أستطيع أن أرى وجهى شطرها لأعبر عن شعورى هى إما ذلك « الكل » العظيم أو أنها لا شىء ، وقد تكون هى الله الذى اشتملت عليه أيقونة ماريا ! لا شىء فى هذه الأرض مؤكداً سوى قلة شأن كل شىء فى حدود فهمى وجلال المجهول الذى لا يسبر عمقه - والحقيقة الفذة ، وربما القوة العظيمة وحدها » .

ورفعت الحفة ، وكان فى كل هزة يشعر بالألم الحاد الذى زادته الحمى والدوار اللذان ألما به ، وتوهم أنه رأى أباه وأخته وزوجته . والطفل الذى سيولد له وصورة نابليون المشوهة القليلة الشأن - وكانت كل هذه الخيالات والصور تروح وتجيئ فى تلك السماء الزرقاء بغير قبة خلال أحلامه المحمومة جميعها ، وكان يبدو له أنه قد عاد إلى ليسى جورى وأنه يعيش

عيشة سعيدة فى هدوء وسلام ثم فجأة يظهر أمامه صورة نابليون الصغير الجرم بنظرته المغرورة وارتياحه لكوارث الغير فيملاً ذلك نفسه بالشكوك والألم . . . ولكنه يعود إلى تأمل السماء الجميلة التى تعدّه وحدها بالخلاص .

وعند اقتراب الصباح اختلطت هذه الروى واشتبهت عليه سماتها واشتدت به وقدة الحمى التى كان الأقرب احتمالاً أن تنتهى بالموت لا بالابلال من المرض - كما قال الدكتور لارى طبيب نابليون الخاص .

قال الطبيب « إنه لن يتغلب على هذا المرض » ، ووكل الطبيب أمره مع غيره من المرضى الميؤوس من حالاتهم إلى رعاية مواطنى الإقليم .

وفى الفصل الثانى من الجزء الثانى من الرواية الذى وقفه تولستوى على وصف الحالة فى روسيا بعد معركة استرلنز وقبل غزو نابليون لها يعطينا تولستوى لمحات عن بعض الأعيان الذين كان فى يدهم زمام الأمور :

« وصل الأمير أندريا إلى بطرسبرج فى شهر أغسطس سنة ١٨٠٩ ، وفى هذا الوقت كان الشاب سبيرانسكى فى ذروة مجده وحماسته للإصلاح ، وفى ذلك الوقت أصيب القيصر (الإسكندر الأول) بمرض فى قدمه من جراء سقوطه من عربته ، واضطر إلى قضاء ثلاثة أسابيع على الأريكة ، وكان سبيرانسكى يعمل معه كل يوم ، وحينذاك أعد المرسومان الإمبراطوريان الشهيران اللذان قصده بهما أحداث تغيير ثورى فى المجتمع الروسى ، وأحد هذين المرسومين كان لإلغاء رتب البلاط والمرسوم الآخر لتنظيم الامتحانات الخاصة التى يجتازها المتقدمون لوظائف ضباط فى الخدمة العامة ومستشارين للدولة وقد تضمن أيضاً لإحداث تغيير جوهرى فى وظائف الدولة جميعها من المجلس الإمبراطورى إلى أقل مجالس المدن شأناً ،

... ورجا الأمير أندريا الضابط المشرف أن يبلغ الوزير عن حضوره ، فأخبره الضابط في شيء من السخريّة أن دوره سيأتي ، وجاء دور الأمير أندريا .

فأمر أحد الحاضرين في أذنه قائلاً « إلى اليمين بعد النافذة » .

وسمح له بالدخول إلى المكتب الخاص ، ولم يكن فخم الأثاث وإنما كان نظيفاً حسن التنسيق ، ورأى أمامه رجلاً يناهز الأربعين طويل القامة بصورة لا تخلو من الغرابة وله رأس مستطيل لا يقل غرابة ، وكان شعره متلبداً وقد تغضّن وجهه وحاجباه الكثيفان يتلاقيان فوق عينين زرقاوين كليتين وأنف متهدل قرمزي ، وحول صاحب المقام الرفيع هذا رأسه نحو القادم الجديد وقال دون أن ينظر إليه :
« ماذا تريد ؟ »

فقال الأمير أندريا « لا أريد شيئاً يا صاحب الفخامة » .

فرفع اراكشاييف عينيه وقال « اجلس ، أنت الأمير بولكونسكى ؟ »

« إنى لا أريد شيئاً سوى معرفة هل صاحب الجلالة الإمبراطور قد تنازل وأحال على فخامتكم مذكرتى ؟ » .

فأجاب اراكشاييف معترضاً « اسمح لى أن أخبرك يا صاحبي العزيز أنى قرأت مذكرتك » ، (واستهل حديثه في شيء من الهدوء ولكنه عاد بعد كلمة أو كلمتين إلى نغمة الغضب والازدراء) واسترسل يقول « أنك تقدم اقترحات جديدة للجيش ، وهناك كثير من الاقترحات القديمة ولا أحد يفرضها ، والناس يكتبونها اليوم وهذا هو أسهل ما يعمل » .

« كانت رغبة جلالته أن أنتظر رأى فخامتكم وأسأل ماذا تصنعون بمذكرتى » .

وكانت الأحلام الخاصة بالإصلاح الحر التي راودت عقل الإمبراطور الإسكندر منذ تسلمه العرش قد بدأت تتحقق تدريجياً بمساعدة مستشاريه مثل زارتوريسكى ونوفو سلتزو وكوتشوبى وسترونجنو الذين كان يسميهم الإمبراطور مداعباً « لجنة الأمن العام » .

وفي ذلك الظرف الهام كان سبيرانسكى يمثلهم جميعاً في المسائل المدنية وكان اراكشاييف يمثلهم في المسائل الحربية .

وكان اختيار الأمير أندريا حاجباً لجلالة الإمبراطور يستوجب أن يذهب إلى البلاط ليقدم الطاعة ، وبالرغم من أنه وقف مرتين في طريق الإمبراطور فان الإسكندر لم يوجه إليه أى كلمة ، وتبادر إلى ذهنه أن جلالته لا يرتاح له أو لا يستحسن شكله ، وكان يؤكد في نفسه هذا الشهور النظرة الفائرة التي كان يلتقاه بها الإمبراطور ، وسرعان ما علم أن القيصر ضايقه اعتزاله الخدمة العامة في سنة ١٨٠٥ .

وقال الأمير أندريا لنفسه « لا نستطيع أن نتحكم في عواطفنا ، وسأبذل جهدى في أن لا أقدم تقريرى عن القانون الحربى بنفسى ، وأكتفى بأن أضمه أمامه ليأخذ فرصته بما فيه من مزايا ! » ووضعه في يد أحد المشيرين المتقدمين فى السن وهو صديق لوالده ، وقد قبل ذلك راضياً ووعد بأن يتحدث عنه فى حضرة الإمبراطور .

وفي خلال الأسبوع أشير على الأمير أندريا بمقابلة وزير الحربية الكونت اراكشاييف ، وفي الساعة التاسعة فى اليوم الموعد ظهر الأمير أندريا فى غرفة انتظار الكونت ، ولم يكن يعرفه شخصياً ، وما سمعه عنه لم يكن يستدعى الاحترام ولا التقدير .

ولكن الأمير أندريا قال لنفسه « إنه وزير الحربية وهو موضع ثقة الإمبراطور ، فإذا يهمنى من صفاته الشخصية ؟ إن فحص تقريرى جزء من عمله ، وهو الوحيد الذى يستطيع أن يؤيد اهتمامى » .

وأراد بلكونسكى أن يهدئ غضب الرجل المتقدم
في السن فهون الأمر قائلاً « أنها ضيعة جدّ صغيرة
ولا تدر سوى دخل قليل » .

فأجاب العجوز « لقد تسرعت أكثر مما يلزم »
ونظر إلى كوتشوبى وأضاف قائلاً « ما أريد أن أعرفه
هو من يقوم بفلح الأرض إذا حررنا المزارعين ؟
وصدقنى أن سن القوانين أسهل من الحكم بمقتضى تلك
القوانين ، واسمح لى أن أسألك يا كونت من يعين
قاضياً حينما يتقدم الجميع للامتحان ؟ » .

فأجاب كوتشوبى « حسن ، احسب هؤلاء الذين
ينجحون فى الامتحان »

وفى خلال هذا الحديث حضر سبيرانسكى ، وقدم
كوتشوبى الأمير أندريا لسبيرانسكى ، فنظر إليه صامتاً
مدة دقيقة أو دقيقتين ثم قال :

« إنى مسرور بمعرفتى لك وقد سمعت عنك
كثيراً » .

وذكر كوتشوبى له فى إيجاز لقاء بلكونسكى
لأراكتشايف ، فابتسم سبيرانسكى وقال أن رئيس
اللجنة صديقى وإذا شئت فأنى أستطيع أن أعدك بتيسير
لقائك له « ثم أضاف قائلاً « وآمل أنه سيحسن لقاءك
ويعنى بكل ما يراه نافعا » .

وتخلّقت حولها جماعة ، وعجب الأمير أندريا
للهدوء المشوب بالاحتقار الذى رد به سبيرانسكى على
الرجل المسن الذى حمل على الإصلاحات الجديدة
وكان كأنه يتنازل من عليائه وهو يفسر هذه الإصلاحات
وحينما رفع المسن الذى كان يجادله صوته اكتفى بالابتسام
ولم يسترسل فى الكلام مبدياً أنه لا يرى نفسه أهلاً ليكون
حكماً على نفع القرارات التى يصدرها القيصر أو
عدم نفعها .

وبعد مضى دقائق على ذلك الحديث العام قام من
مقعده وقاد الأمير أندريا إلى آخر الركن الآخر من

« لقد أرسلتها إلى اللجنة بعد أن أوضحت رأيي »
ونفض قائلاً « وأنا لا أقر ما بها » وتناول وثيقة من
المنضدة وناولها لبلكونسكى قائلاً « هذه هى الوثيقة »
وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص وكلماها ناقصة
الحروف « ليس لها أساس منطقي ومنقولة من القانون
الفرنسي وتختلف عن قانوننا اختلافاً لا يقوم على
أسس معقولة » .

« وما هى اللجنة التى ستنظر فيها » .

« لجنة مراجعة القانون الحربى ، وقد وضعت اسم
سموكم فى القائمة لتكون عضواً شرف » .

فابتسم الأمير أندريا قائلاً « لم يكن لى أن أضم
إلى هذه اللجنة » .

فرفع صوته قائلاً وقد أراه الباب « عضو شرف ،
أنت تفهم ذلك جيداً ، طاب صباحك - حسن ، من
يتلوه فى الدخول ؟ » .

... وكان حزب الإصلاح ينظر إلى الأمير
أندريا نظرة عطف ، ففى اليوم التالى لمقابلته لأراكتشايف
ذهب فى المساء إلى اجتماع بمنزل الكونت كوتشوبى ،
وحديثه عن لقائه لأراكتشايف ، فقال له كوتشوبى
« يا صاحبي العزيز ، وحتى حينما تكون عضواً فى اللجنة
فانك لا تستطيع أن تصنع شيئاً دون مساندة سبيرانسكى
فهو الذى يعمل كل شئ ، وسأتحدث إليه فى هذا
المساء فقد وعدنى بالزيارة » .

فسأله الأمير أندريا قائلاً « ولكن ما الذى يجعل
سبيرانسكى يحفل بالقانون الحربى ؟ »

فهز كوتشوبى رأسه مبتسماً فى دهشة من بساطة
السؤال :

« لقد تحدثنا عنك - وعن عمالك الأحرار » .

فقال رجل من الحاضرين متقدم السن فى حدة ،
أوه ! أنت إذن الأمير الذى حرر المزارعين « وكان
هذا الرجل من بقايا عهد الملكة كاترين .

الحجرة ، وكان مما يلائم أفكاره أن يتحدث مع الأمير أندريا .

« لقد غلبني على أمرى هياج ذلك السيد المسن فلم أجد وقتاً لأتبادل معك بضعة كلمات » قال ذلك وقد علت وجهه تلك الابتسامة التي يشوبها شيء من الاحتقار يبين أنه يريد أن يفرض بشعوره بتفاهة الجماعة التي تحالطها ، وشعر الأمير أندريا بأنه يتملقه .

واسترسل اسبيرانسكى يقول : « لقد عرفتكم منذ وقت طويل عن طريق شهرتك ، وتخريك لفلاحين مثال أود أن يقتدى به الناس ، والشيء الثاني أنك الحاجب الوحيد من حجاب الملك الذي لم يسوئه القرار الإمبراطورى الخاص بنظام الرتب في البلاط ، وقد أثار ذلك القرار الكثير من الغضب والنقمة .

« حقيقة أن والدى لم يشأ أن أستغل امتيازاتى ، وقد بدأت الخدمة من الدرجات الصغيرة » .

« إن والدك ولو أنه من رجال الجيل الماضى ولكنه أسمى بكثير من هؤلاء المعاصرين لنا الذى ينتقدون هذا المرسوم ، إنه يرمى إلى إقامة العدالة على أسس سليمة » فقال الأمير أندريا وهو يحاول بذل مجهود للتخلص من تأثير الرجل « وبرغم ذلك أميل إلى التفكير فى أن هناك أساساً للنقد » ولم يقبل الأمير أندريا أن يستلم للرجل بكل ما يرى بل مال إلى مناقضته ، ولكن عقله كان مشغولاً بملاحظة الرجل إلى حد أنه لم يستطع أن يعبر عن أفكاره ببراعته العادية » .

وقال سبيرانسكى مبتسماً « إنه نقد قائم على الخيلاء الشخصية » :

« إلى حد ما من غير شك ، ولكنه فى رأى من أجل مصلحة الحكومة نفسها » .

« كيف ذلك ؟ »

فقال الأمير أندريا « إنى من تلامذة منتسكييه » . ومن رأيه أن بعض الامتيازات الخاصة والحقوق المكتسبة لازمة » .

فاختفت الابتسامة من وجه سبيرانسكى ، واكتسب وجهه الكثير لهذا التغيير وقد همته الملاحظة التى أبدتها الأمير أندريا .

.... وبعد أسبوع من هذا الحديث عين الأمير أندريا عضواً فى لجنة تغيير القانون الحربى » .

ويصف لنا تولستوى لقاء الأمير أندريا لنتاشا فى الفصل الخامس من الجزء الثانى ، فقد كان الأمير مدعواً فى حفلة راقصة فخمة أقامها فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٠٩ أحد ذوى الاخطار ممن كان لهم شأن عظيم فى عهد كاترين الثانية ، وحضر الحفلة القيصر الإسكندر الأول وكبار رجال دولته وحاشيته ، وكان من المدعوين إلى الحفلة أفراد من أسرة روستوف ، منهم نتاشا والدة الأمير ، وحينما بدأت الرقصة الأولى لم يلتفت أحد إلى نتاشا ولم يتقدم لمراقبتها أحد مما كدر خاطرها وأساء إلى كبريائها ، وبينما كانت تعاني هذه الأزمة النفسية بعد انتهاء الرقصة الأولى تقدم بيير بيزوكو من الأمير أندريا وأشار عليه بمراقبة الكونتس نتاشا روستوف ، ولم يكن الأمير أندريا قد لاحظها فى الحفل ودله على مكانها ، فتبع الأمير أندريا بيير بيزوكو وأدرك الأمير أندريا حينما اقترب من نتاشا ما يخالف شعورها ، وتقدم الأمير من الكونتس والدة الأمير وحياها ، وقالت له والدة « أسمح لى أن أقدم لك ابنتى » فأجابها الأمير أندريا « إن لى شرف معرفتها ، ولكنى لا أدرى هل تذكرنى أولاً ، وطلب من نتاشا أن تراقصه فأشرق وجهها بابتسامة عريضة ، وتوقدت عيناها واختفت الدموع التى كادت تهم بالسقوط من عينيها ، وكأنها كانت تقول « لقد انتظرتك منذ الأبد » .

وكان الأمير أندريا يحسن الرقص ، وقد أثر مراقبة نتاشا ليضع حداً للمحادثات السياسية المملة التى ضايقته فى هذا الحفل ، وما عثم أن بدأ مراقبتها ووضع يده حول جسمها اللدن الأهيف وشعر بتمايلها وانسيابها فى عناقه حتى أخذ بسحر جمالها وأحس عودته إلى

الشباب والحياة ، وكان هذا بدء تمكن حبه لنتاشا وهى إحدى شخصيات الرواية العظيمة التى أبدع تولستوى فى تصويرها .

وقد أنهى تولستوى روايته بخاتمة طويلة بسط فيها ما يصح أن نسميه مذهبه فى فلسفة التاريخ ، وقد أفضى بتولستوى تأمل الحياة البشرية إلى الاعتقاد بأننا فى هذه الحياة الأرضية الفانية لا نفعل ما نريد ، وإنما نفعل ما يراد بنا ، وأننا لسنا سادة أنفسنا كما يزين لنا الخيال ، وإنما نحن خاضعون للقدر ، وقد سمى هذا القانون المسيطر على حياة الأفراد قانون « الحتم » وحاول أن يعارض به قانون « الإرادة » الذى يمثله لنا الوهم ، وحاول فى روايته أن يبين أثر هذا القانون فى حياة الأفراد الضيقة المحدودة وفى حياة الأمم والجماعات البعيدة المدى المترامية الآفاق .

ومن كلماته فى هذه الخاتمة قوله فى الفصل الثانى منها « إذا زعمنا كما يزعم المؤرخون أن الرجال العظماء وحدهم هم الذين يمكنون الإنسانية من تحقيق الأغراض العظيمة مثل رفع شأن روسيا أو فرنسا أو المحافظة على التوازن فى أوروبا أو نشر الأفكار الثورية أو التقدم العام أو أى شىء آخر فإنه يصبح من المستحيل علينا أن نفسر حوادث التاريخ بدون أن يكون عندنا أفكار معينة عن موضوع المصادفة والعبقرية .

وإذا كان هدف الحروب الأوروبية فى مطالع هذا القرن (القرن التاسع عشر) هو رفع شأن روسيا فإن هذا الهدف كان يمكن تحقيقه بدون الحروب التى سبقته وبدون الغزو ، وإذا كان هذا الهدف هو رفع شأن فرنسا فإن هذه الغاية كان يمكن تحقيقها بدون الثورة أو الإمبراطورية ، وإذا كان هذا الغرض هو نشر الأفكار فإنه كان يمكن أن يتحقق بصورة أوفى عن طريق الصحافة مما لو تم بطريق الجنود ، وإذا كان هذا الهدف هو تقدم الحضارة فأننا نستطيع حينئذ أن نفترض أن هناك طرقاً أكثر ملاءمة لمد رواق الحضارة وخير

من إبادة المخلوقات البشرية وما يملكون ، فلماذا إذن تحدث هذه الأشياء هكذا ولا تحدث بطريقة أخرى ؟ ذلك لجرد أنها حدثت كما حدثت .

والتاريخ يقول إن المصادفة خلقت الموقف والعبقرية أفادت منه ، ولكن ما هى هذه « المصادفة » وما هذه « العبقرية » ؟

إن هذين الاصطلاحين « المصادفة » و « العبقرية » لا يدلان على شىء له وجود حقيقى ، ولهذا لا يمكن أن نجد لهما تعريفاً ، وهما لا يدلان إلا على درجة من درجات فهم المظهر ، فحينما لا أعرف لماذا حدث مظهر من المظاهر افترض أنني لا أستطيع أن أعرف ، ولذلك لا أريد أن أعرف وأكتفى بأن أقول لنفسى « إنه المصادفة » ، وأرى قوة تنتج عملاً لا يتناسب مع الخصائص العامة للإنسانية ، ولما كنت لا أعرف كيف تنشأ تلك القوة لذلك أقول لنفسى « إنها العبقرية » .

ويضرب لنا تولستوى مثلاً من تناقض المؤرخين فى قوله « يناقض المؤرخون بعضهم بعضاً حتى فى تفسيراتهم للقوة التى يؤكدون أن نفوذ الشخص نفسه قام عليها ، فتتبرر مثلاً المؤرخ البونابرتى يقول إن قوة نابليون كانت تقوم على عبقريته وحبه لفعل الخير فى حين أن لانفرى المؤرخ الجمهورى النزعة يؤكد أنها قامت على الاحتيال وخداعه للأمم ، والمؤرخون من هذا الطراز ي مناقضتهم بعضهم لبعض يقضون على امكان تكوين أى فكرة واضحة عن القوة التى تنتج الحوادث ولذلك لا يقدمون لنا إجابة عن المسألة الجوهرية فى التاريخ » .

واقحام هذه الآراء فى ختام الرواية لم يعجب بعض النقاد من رجال الأدب مثل الكاتب الروائى الفرنسى فلوير ومثل الكاتب الروسى ترجنيف ، ولكن بعض الباحثين المحدثين فى فلسفة التاريخ قد عنوا بها وتناولوها بالشرح والنقد ، وربما كان فى طليعة هؤلاء الأستاذ برلين فى كتابه « القنفذ والثعلب » .